

# برنارد شو والمسألة اليهودية

## بقلم عزه الطائي

السلوك ضد جميع المؤسسات والنظم التقليدية (١) .  
وقد جعل شو شعاره في كل ذلك شعار ابنس : القاعدة الا يكون هناك قاعدة وهو الشعار (٢) الذي التزم به في الميدان السياسي أيضا .  
كتب سنة ١٩٤٢ : دعي ابنس الى ان يتخذ لنفسه بطاقة حزبية فرد بانه يجمع في ذاته بين اليمين واليسار ، لقد وجدت نفسي في عين الموقف تماما (٣) .

وفي الجانب الاخر لم يكن شو غافلا عن النموذج التاريخي الرهيب للعبودية الانسانية : التملك الفردي وهو النموذج الذي يؤلف في مجتمع كالجموع البريطاني في اواخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين والنموذج الاخر الذي اشرنا اليه - الاخلاق الجاهزة وحدة لا تتجزأ في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية . فحمل عليه هو الاخر حملة اشد سعة وهولا وكتاباته ومواقفه بهذا الشأن غنية عن التعريف .  
من حكم الثوار ( في الانسان والانسان الكامل ) : الملكية سرقة ، هكذا قال برودون ، انها السلمة الوحيدة التي قيلت في الموضوع .  
ومن رسالة مؤرخة في ١٠ - ٣ - ١٩٤٢ : اود ان انصح الشعب باختيار الشيوعية (٤) وان اوضح بعناية كيف تقام بدون ان يمك احد برقية الاخر ! .

وبسبب من اندفاع شو في هذين الجانبين مما ولما امتاز به من مزايا شخصية فريدة فانه يؤلف طرازا طريفا من الاشتراكيين الفوضويين .  
قال في تقريره الى الجمعية الفابية صيف ١٨٩٣ : تبدو لي لهفة باكونين الشديدة لتدمير كل الحكومات والكنائس القائمة وما لها من قوانين ومؤسسات دينية وسياسية وقضائية ومالية وعقابية وثقافية واقتصادية واجتماعية مبررة تماما ومفهومة من وجهة نظر الرجل المتعلم العادي الذي يؤمن بان تلك المؤسسات هي التي امست تصنع الناس بدلا من ان يصنعها هي الانسان (٥) .

اعتنت الدوائر العربية المثقفة في الاونة الاخيرة بالموقف الفكري والسياسي لكبار المفكرين العالميين من قضية اليهود واسرائيل ، فكتب الدكتور سهيل ادريس وكامل زهيري عن موقف جان بول سارتر واخرون عن موقف ارنولد توينبي واستمع الناس الى اراء كريشنا مون وبيير روسيه في ندوة الطلبة الفلسطينيين بالقاهرة . ورغم ان احر مؤلفات برنارد شو قد خرج الى الوجود قبل اقامة اسرائيل فعسى ان يكون الحديث عن موقفه هو :لاخر من المسألة اليهودية عموما وامعان النظر في جذور ذلك الموقف ودلالته مساهمة متواضعة في استجداء كافة ابعاد التحدي البشع الذي يواجه العرب مباشرة في فلسطين ويؤلف نضالهم ضده ونضالهم لجوهره البرجوازي المنصري حلقة ثمينة في نضال البشرية التقدمية كلها في العصر الراهن .

تتبع صورته شو في ذهن الرجل الغربي عادة كمنادى للسامية وممالء لتدكتاتورية وقد عمل اليهود ومناصريهم لاسباب دعائية خلال الحرب العالمية الثانية خاصة على توكيد هذه الصورة الساذجة المفتعلة في الازهان مما يدعو الى وجوب التعرف على الحقيقة عبر التكوين الفكري العام لشو .

من المفكرين الكبار صنف امتاز بالابداع انظري الحق واضاعة مكتسبات جديدة الى مجالات الفكر الاخلاق مثل هيجل وداروين وكيركجورد وفرويد وصنف ينحصر دورهم الرئيسي في تحطيم الاصنام القائمة ومحاولة الا يصبحوا هم اصناما ويبرز من خلالهم نيتشه وكارل ماركس وشو نفسه .

لقد بدأ شو كتاباته الهادمة بالهجوم على الارستقراطية البريطانية المزرية وقيم انفاق والتطلع الطبقي والشرف المصطنع والرياء والاهتمامات السخيفة الاخرى في المجتمع الانجليزي ، ثم اكتشف - تحت تاثير فاجنر ونيتشه وابسن ان كل تلك القيم والامال الكاذبة انما هي درجات معدودات في سلم طويل للاخلاق والواجبات والمثل العليا الجاهزة التي تنتسب بدورها - حسب تعبيره الى قوى عليا مجهولة تختفي ما بين السحب مما دعا به الى شن حملته البارعة على كل تلك الاخلاق والمثل المجردة وما ادت اليه من فقدان الحب الحر لحيوته وجسمل الزواج شكلا من اشكال القهر والتسلط والمرأة اداة لاثارة الرجل وارضائه فحسب وليست هدفا بذاته . والتي رأت في الإرادة الفردية الخلافة شيطانية وخبيثا ولعنة . وقال بصريح العبارة ان طريق الحرية التي تشهدها البشرية منذ الازل يمتليء بحطام الواجبات وركام المثل العليا . والعبودية الحقيقية في الوقت الحاضر هي العبودية للمثل العليا والثوري من ينسف تلك المثل ويعظم الاصنام دون ان يخشى نظرات المجتمع الشؤرة . وان لكل امرئ الحق في الا يضحي او يدفع بالآخرين الى التضحية من اجل مثل غليا لا يقتنع بها وما هناك من هو اشقى من انسان يمتنع عن القول او الفعل خلافا لمشيئة الاخلاق والنظم الجاهزة التي لا يؤمن بها ، وما دامت الحياة ارادة والارادة شيئا متطورا ناميا على الدوام فمن حقنا ان نحتكم الى انفسنا في مسائل

(١) يلتقي شو هنا والنظرة الوجودية الى السلوك الانساني .  
(٢) عن جوهر الابسنية في مواضع متفرقة ومن حكم الثوار الاولى في الانسان والانسان الكامل : القاعدة الذهبية هي ان ليست هناك قواعد ذهبية .  
(٣) قال ابنس عن فرديته : انا وحدي مسؤول عما اكتب ، انا لا احد غيري . انا لا امك القابلية على الانتماء لاي من الاحزاب ، اقف وحيثا كالكاثوليكانيان واحارب بنفسي . برنارد شو : حياته ، اعماله واصداؤه - جون ايرفن ص ٢٣٢ لندن ١٩٥٦ ومن ثم هاجمه لينين في مرض الطفولة اليساري كمنال للمثقف المتردد .  
(٤) يعني بها المشاعية الاقتصادية وليس النظام السياسي المعروف وتجد صدى لبعوته هذه في اندروكليس والاسد . انظر مدخل وارد للمسرحية ص ١٦٥ ط الزمانز وغرين ١٩٥٧ .  
(٥) شو والمجتمع مقالة كتجسلي ملاتن ص ١٢٢ لندن ١٩٥٣ ويقول نفس الكاتب ص ٥٠ : ذهنيًا وذوقيا كان شو فوضويا ومثله برتراند رسل في صور من الذاكرة ص ٨٧ ت احمد ابراهيم الثرب .

ولنفس السبب ومع اهتمامه الفلسفية الكثيرة وتفنه في الكتابة المسرحية فانه يظل سياسيا قبل كل شيء وتظل السياسة الشبسية الجوهرية في كل ما كتب كما قال تشستر تون احسن من كتب ويمكن ان يكتب عن شو فيما يرى جون ايرفن (٦) .

ومن المزايا الفريدة لشو : الوضوح والسخرية فهو يطلق اراءه في كل فضيه بصراحة لامتناهية لحد السماجة كما اتهمه البعض ، وبعبارة جازمة لا تقبل اي ليس او ابهام وكتابه فيما يرى جون مثل كتابات سوبفت وفولتير خالية من الهمس والظلال والرمزية .

واما السخرية فخير اداة نفع رجلا في موقف كموقف شو يكذب ان يهاجم كل شيء ولا يعتقد اعتقادا جازما باي شيء ، يهتك متناقضات المجتمع البرجوازي ويفضح نقابيه ومعايير المهترئة . كما ونرى ان الفكاهة والسخرية من سمات الرجال ذوي الفكر المنفتح والنفوس الرحبة على عكس الرجال المنعصبين لارائهم المبالغين للتسلط .

لقد نشأت العلاقة المهمة لشو بالمسألة اليهودية ولكن من الناحية السياسية السلبية من جراء احدي فعالياته السياسية بالسماجات المارة الذكر وهي انعقاد الديمقراطية واطراؤه لبعض الزعماء المعادين لها في بعض فترات حياته .

فلقد كان شو عديم الايمان بقابلية « الاغلبية » في حسم القضايا الاجتماعية الكبرى وبالتالي ساخرا بقيادة احزابها وبرلمانها وبمؤتمرات السياسة الدوليين متهما اياها بالعجز والضحالة . وفي مسرحيته عربية التفتح تستخدم اصوات الناخبين لمجرد وضع اناس غير اكفاء في اماكن غير مناسبة ( وانظر جود ص ١٦٥ ) وفي « على الصخور » يتهم الحركة العمالية بعدم ادراك مصالحها الحقيقية البعيدة المدى (٧) .

ولعدم وضوح رؤيته الكاملة لاسباب عجز الاغلبية في الحكم والذي اصبح اليوم في عداد المبادئ السياسية الثابتة (٨) وتوفه الشديد الى الاصلاح الاجتماعي الفوري والقضاء على الفقر اشبع ما يمكن ان نأنيه الامة كما قال ، فقد ابدى اعجابه ببعض الحكاميين بغير الوسائل الديمقراطية المعروفة كقيصر الذي صورته مثاليا عاجزا عن العمل في مسرحيته « فيصر وكليوباتره » على عكس نابليون الذي رسم شخصيته في مسرحية رجل القدر نموذجا للرجل المطلوب بنظره : اللاديني ، غير المتعلق باحد اوهام الاخلاص او الوطنية او المثل العليا المجردة ، وقال عنه انه ذو رؤيا واقعية واضحة للطبيعة البشرية في شؤونها العامة (٩) ثم كان رضاؤه عن بعض اعمال موسوليني وهتلر وستالين (١٠) .

وحين نضع رأي شو هذا في مكانه الصحيح يبدو من الضحالة ابهامه بالفاشية . واذا كانت الفاشية تعني على مر التاريخ امتياز فئة معينة على بقية الناس لسبب لا عقلاني ، فهذا ما يدعوها الى احتقارها

(٦) ووافق جود على قول تشستر تون : شو ص ١٢١ لندن ١٩٤٩

(٧) مطا يذكر هنا ان نهرو قرأ هذه المسرحية مع غيرها من مسرحيات شو في السجن وقد تمتع بمقدمتها والجدال الدائر ما بين المسيح وبيلاطس فيها . جواهر لال نهرو : فرانك موريس ص ٣٢ ، نيويورك ٤ وقد يبدو غريبا اعجاب رعيم لم يتخلل عن اليمانه بالديمقراطية وعمله من اجلها يوما هو بهرو بكاتب هذا انطباعه عن الديمقراطية ولكننا لو فهمنا المناخ العسكري الحقيقي الذي اتب هذا الانطباع لزال الغرابة .

(٨) غير عنه هايولد لاسكي بقوله ان الفترات الحاسمة في كل شيء لم يمدا يتحلها الناخبون او النواب او الساسة وانما الخبراء وحدهم وهذا ما نحس به شو بصورة بدائية عندما قال في ميجر بربرة ( ١٩٠٧ ) : ان اخطر المهام يمهد اليوم الى لجان مؤلفة من نفر من ادعياء المعرفة بعلوم الانصبال والنفس وهم لا يعلمون منهما اكثر مما يعرفه الرجل البدائي عن سطحية الارض .

(٩) جود ص ١١٨ .

(١٠) يرى جود ص ١٤٩ ان من اوجه النسب العديدة بين افلاطون وشو كراهيتهما للرجل السارح وانه تحت تاثير جمهورية افلاطون لم يعد شو مؤمنا بتحقيق الاشتراكية عن طريق الاغلبية البرلمانية .

لهم وسيطرتها عليهم ومحاولة القضاء على كل اعدائها . ونحن نؤكد على العنصر اللاعقلاني في الموضوع وانعكاسه العملي : افناء المعارضين اذ لا نجد اية مفاهيم دقيقة ومحددة لدى دعاة الفاشية في اي زمان او مكان وسواء اكانوا من حملة « الرسالات الدينية المقدسة او العنصرية او الارستقراطية الاجتماعية والنخبية » وبهذا ايضا يمكننا تحليل تغزل الفاشيين دوما بالروحانية الدينية . يقول ستندال في « الاحمر والاسود » : الفكرة التي تقدم للطفة اجل الخدمات هي فكرة الاله .

الم يقل موسوليني ان الدين اعرق مظاهر الروح الانسانية وهتلر في « كفاحي » : ان اصول الدين هي القوانين الاساسية للدولة . وامامنا ايضا الفاشية الاميركية ما عنصرها الحقيقي ؟ حمل « رسالة العالم الحر » والدناع عن « القيم الروحية » للانسان المعاصر ضد الاشتراكية العلمية وما هو انعكاسها العملي ؟ انه التمييز العنصري والتمالي على كل « اجنبي » عن الولايات المتحدة وهو ما يشعر به كل زائر لها ومجاله الاوسع : مذابح اللومينيكان والكونغو واليمن وكوريا وفيتنام .

ومن هنا ايضا نخذيرنا لبناء ودعاة الاشتراكية العلمية في وطننا العربي من قلبها الى « اسطورة ... صوفية دينية .. » خاصة وقد قلب سان سيمون اشتراكيته الى « مسيحية جديدة او ديانة نيوتن » وكادت ان تنقلب الماركسية بايدي الماركسيين الى « ديانة » كما عير برديايف .

... واذا كانت الفاشية بهذا المعنى فقد وضع لنا فكر شسو بعناصره العقلانية والانعصية وعدم تشبته بالتصورات المطلقة وتاكيد اللامحدود على المساواة الاقتصادية مما لا يتفق واياها ابدًا وحتى مفهومه عن السوبرمان ليس اكثر من مبدأ يوجيني صرف اصبح مضطربا به من العلم الحديث بان يتطور الجنس البشري ككل الى مرحلة بيولوجية يصبح فيها الرجل من « عامة الناس » اعلى مستوى من يوليوس قيصر بنسبة ما يعلو ارباب الحرف الانجليز اليوم على مستوى رجل الغابات الاسترالية البدائيين - كما يقول شو .

وبنفس الكيفية لا يمكن اتهام شو باللاسامية ايضا وقد قيل ان غشه من فيمة الديمقراطية وخاصة في مسرحية جنيف ( ١٩٢٩ ) قد وضع العديد من التحجج بيد الدكتاتورين موسوليني وهتلر لارتكاب اعمالهما التدميرية (١١) واتارت المسرحية نائرة اصدقائه وقال بعضهم عنها انها فاسية وغير لائقة وجاهلت المعاملة المحجفة لهتلر نجاه اليهود ورغم احتجاج الاميركان والانجليز عليها (١٢) .

والحقيقة ان شو لم يكن جاهلا بطبيعة النظام الهتلري وقد حمل القرب مسؤولية اتجاه المتيا بعد هدنة ١٩١٨ نحوه ورأى انه مجرد هوى جنوني لا نظاما سياسيا بالمعنى المعروف وكان عالما باضطهاده اليهود . ويعتبر شو من القلة الذين تنبأوا بفشل هجوم هتلر على الاتحاد السوفياتي بمقالته المبكرة في نيوز كرونيكل عدد ٢٣ - ٦ - ١٩٤١ .

والخلاصة ان ليس هناك اي التقاء نظري بين الشوفية والفاشية او اللاسامية وانما كما قالت بلانش باش (١٤) : لقد اقتنع شو بالدكتاتوريين لاصلاحتهم التي كانت تجذبه دائما . لقد آزر هتلر عندما وضع حدا للبطالة ووافق موسوليني عندما قضى على مستنقعات يونتاين ولم يبدأ بتقدير خطورة حقدتهما على اليهود والشعوب الملونة

(١١) برنارد شو : الانسان والكتاب - اودري واليامس ص ٣٦ ، نيويورك ١٩٦٣ .

(١٢) جون ايرفن ص ٥٦٤ .

(١٣) برنارد شو : حياته وشخصيته - هيسكت-بيرسون ص ٤٢٤ - ٤٣٥ و ٤٣٨ حاشية ، لندن ١٩٤٨ .

(١٤) ثلاثون سنة مع ج.ب.ش ص ١٧٢ - ١٧٣ ط ٢ لندن ١٩٥١ .

وضعوا الاساس النفسي والمعنوي ليس « لحالة الاضطهاد » بل « لواقع استعبادهم واستقلالهم الاقتصادي » للاخرين ، فما داموا هم الورثة الحقيقيين للارض وثرواتها فلماذا لا يستغلون الغير ويحرمونهم منها ؟ وبذلك اكمل شو النصف الثاني للنفس الماركسي للمسألة عندما ربط بين سر اليهودي المتدين واليهودي الواقعي وكشف ان نظرة الاخرين لليهود نفوم على اساس موضوعي بحث هو الطبيعة الفاشية التسلطية للعقلية اليهودية ووجهها العملي التجارة لا المزاج .

واذا كانت اليهودية في جوهرها ، والصهيونية وجهها السياسي، اضطهادا فاشيا منظما للشعوب مرتكزا على اساس غيبي بحث (١٨) فان الرد عليها ان يكون بمثل ما فعل هتلر وقد اعتبر شو اضطهاده لليهود من قبيل الحروب الديئية (١٩) وانما بسلب اليهودية سلاحها المادي الا وهو الملكية الفردية او كما قال ماركس في المسألة اليهودية « وحين ينجح المجتمع في الغاء الجوهر العملي لليهودية : المتاجرة وشروطها ، عندئذ يصبح وجود اليهودي مستحيلا » وهو الهدف الصميم الذي ناضل من اجله شو طويلا وينبغي ان يناضل من اجله العرب قبل غيرهم ان ارادوا التحرير الحقيقي لوطنهم وللانسانية من الصهيونية ... ولا طريق اخر .

### مزاحم الطائي

### الاعظمية - العراق

(١٨) ذهب هورينبي في ندوته المنشور عنها بمجلة الكاتب الفاهرية ابريل ١٩٦٥ الى ان اساس الصهيونية ليس دينيا لان كثيرا من قادتها غير مسابطين . ان توينبي يفهم الدين هنا بمعناه الظاهري والدين ليس مجموعة طفوس او سلوكية معينة تحسب وانما هو قبلها حالة لاعقلانية منفصلة وعقائدا غير واضحة او دقيقة .

(١٩) مقدمة الرنجية نبض عن الله ص ٢١ .

وهو نفسه لم يكن يشعر بأي شعور ضد اليهود الذين كان بينهم عدد من اصداغاه (١٥) .

الا ان هذه العلاقة السلبية لشو بالمسألة اليهودية لا يعني انه لم يكن ذا نظره خاصة اليها فقد وردت اشارات عديدة في مؤلفاته الى اليهود واليهودية وفي كثير من الاحيان يتفق ونظرة الكثيرين الى اليهود كناس يحملون خصائص اجتماعية معينة ففي « الفاجزي الكامل اشارة الى المرابي اليهودي وفي حوار قصير بين الرنجية واليهودي في مسرحية « الرنجية بحث عن الله » تستهجن الاولى عقيدة يهودي بظهور المخلص الذي سيصلح كل شيء . وميندوزا زعيم العصاة الذي ندعي الفوضوية الاشتراكية في الانسان الكامل يعلن عن شرف كونه يهوديا وانه لن يكون المطوع الاخير عندما نحتاج الصهيونية لزعيم يجمع شمل الجنس اليهودي على ارضه التاريخية فلسطين (١٦) ويظهر في المسرحية مثال للانتهازي السياسي الذي يتسرب الى قيادة الحركات السياسية ويحمل كل الشعارات في سبيل تحقيق مطامعه .

ويضع شو يده على المفهوم الصحيح لليهودية في مقدمة « الرنجية بحث عن الله » (١٧) عندما يتحدثها ليس كمجرد حالة نفسية يعانيها الفرد اليهودي بسبب اضطهاد الاخرين له ونظرتهم غير الطبيعية نحوه بل كاندفاع قبلي اهوج بحث تأثير الوهم القائل بان اليهود هم شعب الله المختار والورثة الطبيعيون للارض ومحتكرو القدسية الالهية وبذلك

(١٥) مثل اينستينين وكان يعلق صورته في حجرة المكتب التي جوار نيتشه وديكارت وقد حياه اينستينين بكلمة ، انظر كتابه : العالم كما اراد ، ص ٣٧ ، نيويورك ١٩٤٩ .

(١٦) الانسان والانسان الكامل ١٩٠٢ ص ١٢٠ ط بنجوين .

(١٧) ص ١٦ ط بنجوين .

صدر حديثا :

# الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية

بقلم الدكتور حسن صعب

كتاب هام يضم عدة ابحاث قيمة تنبع من معين واحد ، هو معين الايمان بالاسلام ، والاعتقاد بقدرته على ان يواجه تحديات الحياة العصرية بالروح الخلاقة نفسها التي جابه بها مختلف التحديات منذ نشأته

منشورات دار الاداب

٢٠٠ ق.ل